وباقي حريم السلطان ، حمل إليه مكرمات ممزوجات . ولما دعى السلطان إلى الحفلة التي أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر ؛ وضع تيمور التاج على رأسه ، ووعده برد عرشه وملكه ، ولكن السلطان الأسير ما لبث أن توفى ، فحزن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم في المدفن الذي أقامه لنفسه في بروصه ، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول

على أن هذه الرواية لا يمكن أن تنال من الثقة ما تناله منا رواية ابن عربشاه ، فهي على ما يلوح رواية قَصْرٍ أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه . ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيبون أن يوفق بين الروايتين ، فيقول لنا إن رواية شرف الدين في شقها الأول صحيحة لا ريب فيها ، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته ، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة ، فاستاء تيمور واعتزم أن يقود أسيره في ركبه الظافر إلى سمرقند ؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حملت تيمور على التشدد في معاملته ، فزج به إلى قفص من الحديد ، اقتداء بما قرأه في بعض السير القديمة من أن سابور أحد ملوك الفرس وقع في قبضة قيصر فسجنه في قفص من الحديد[1] . ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب في التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة ، فدعاه ذات يوم إلى حفل أنس عقده ؛ ولما جاء دور الشراب ، التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عيني مليكهن ؛ وقد كان ذلك من تيمور مبالغة في الانتقام من خصمه والتشفي منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء في مكاتبته[2] . وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها في الملك الأسير ، فلم يمض على محنته بضعة أشهر حتى توفي في غمر الحسرات والأسى ، وكانت وفاته في مارس سنة ١٤٠٣ م

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وانتصاراته ؛ فلم يمض قليل على عوده إلى مملكته حتى لحقه المرض وتوفي في شهر فبراير ١٤٠٥ ؛ وكانت وفاته نذير انحلال ذلك الصرح الشامخ الذي شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه

محمد عبد الله عنان

(١) جيبون : Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الخامس والستون

(٢) ابن عربشاه ص ١٣٣

عبرة السيرة

بين يدي « العدد الممتاز » من الرسالة

للأستاذ علي الطنطاوي

إن مائة ألف قارىء في مشارق الأرض ومغاربها ، سيأخذون (غداً) العدد الممتاز من (الرسالة) وسيقرؤونه وسيحيي في نفوسهم هذه الذكرى العظيمة المحبوبة التي نقف عندها في كل رأس عام هجري ، كما يقف المُصْحِر في واحة مخضرة ظليلة... نتنشق منها عبير المجد ، ونتسمع أغاريد النصر ، ونجتلي في طلعتها طيف الأيام الباسمة التي كان من قطوفها ألف معركة ظافرة حملت غارها الراية الاسلامية ، وألف مدرسة وألف مكتبة نالت نخارها وجنت ثمارها البلاد الاسلامية ، وكان من حصادها هذه الحضارة التي نعمت في أفيائها الانسانية ، وكانت إحدى الحضارات العالية الثلاث بل كانت أسماها (من غير شك) وأحفلها بالعظمة والفضيلة والحق !

نقف كل عام لنحيي ذكرى الهجرة ونحييها ، فنكتب فيها ونقرأ ونذكر ونتأمل ، ونرتفع على جناح هذه الذكرى إلى جوّ عال من العظمة والفضيلة والشرف ، نبقى فيه ما بقي المحرّم ، فإذا مر مر معه كل شيء : صوّخت الآمال ، وهجعت الذكريات ، وعدنا نتخبط في سواد اللجة ... لا نربح من هذه الذكرى إلا ما يسيل على أقلام أولئك الأعلام البلغاء من طرائف البيان يحويها عدد الرسالة الممتاز ، ولا نفيد من المحرم إلا ما (قد) نقرؤه في الصحف والمجلات من القصص والقصائد والمقالات . وكثير مما يكتب في العدد الممتاز ، وبعض مما ينشر في الصحف والمجلات ، قيم ثمين ، نعتده ثروة جديدة تضم إلى آدابنا الغنية الحافلة بثمرات القرائح الخصبة المرعة في الأعصار الطويلة ، ولكن ذلك لا يكاد يجدي علينا في نهضتنا إذا نحن لم نحي هذه الذكرى إحياء ، ونكتبها مرة ثانية على صفحات الوجود ، ونأخذ منها عبرة تنفعنا في نهضتنا ، وهذا ما أنشيء له العدد الممتاز ، وهذا ما يراد من إصداره .

وفى هذه السيرة من القوة والسمو والحياة ، ما يغذي عشرين نهضه ويمدها بالقوة ، لا تدانيها فى هـذا سيرة فى التاريخ ولا تشبهها ، بل إن هذه السيرة أعجوبة التاريخ ومعجزته ، وهى خيال بالغت الدنيا فى تزيينه وتزويقه ، وأودعته مثلها العليا كلها . فجعله الله حقيقة واقعة ...

ولقد قرأت هذه السيرة مرات الله أعلم بعددها ، فى كتب لا أكاد أحصيها ، ثم عدت اليوم أقرؤها لأجد فى ثنى من ثناياها قصة مطوية أو حادثة مختبئة ، أبني عليها فصلاً أكتبه للعـدد الممتاز ، وفى ظنى أنى لن أسير فى قراءتها إلا قليلا حتى أملها وأعزف عنها لأنى لا أجد فيها — وقد قرأتها حتى حفظتها — خبراً جديداً ... وأقسم أني لم أسر فيها غير بعيد حتى أحسست بلذة فنية تمتلك عليّ أمرى ، وتستأثر بنفسى ، كاللذة التى أمسها عند ما أقرأ الأثر الأدبى البارع لأول مرة ، وتغلبنى حتى تضطرنى أحياناً إلى قطع القراءة لأمسك بقلبي الواجب ، أو أمسح عينى المستعبرة ، أو أصغى إلى صوت الحق فى ضميرى ، ومنادي الفضيلة فى قلبي ؛ ثم أسير فيها ، فأنتقل من اللذة الفنية ، والشعور بالجمال ، إلى شىء أعلى من الفن وأسمى من الجمال : أحس بحلاوة الإيمان ؛ وإن للإيمـان لحلاوة عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها ، فمن عرف درى ما أقول ، ومن جهل لم ير إلا حروفاً فارغة من المعنى ... وإذا جاء الايمان جاءت معه البطولة بأروع أشكالها ، والتضحية بأعجب أنواعها ، وجاء معه الصبر والإيثار والقوة والشعور ، وكل فضيلة من فضائل البشر ... وكذلك كانت حياة أصحاب هذه السيرة !

كانت حياةً أسمى وأجل من كل حياة عرفتها أو قرأت عنها أو تخيلتها : معرفة للغاية التى خلق الله الناس من أجلها ، وجهاد فى سبيل هذه الغاية ، وجرى على هذا الجهاد ، وترفع عن خدع الحياة وألاعيبها ، واتصال بالله يكاد والله يرفعهم من رتبة الإنسانية إلى رتبة الملائكة ويخرج بهم من ثوب الجسم المـادّى ، حتى يكونوا روحاً خالصاً ...

عرفوا ما هى الغاية من الحياة وفهموها ، على حين جهل الناس هذه الغاية فهم يسألون أبداً : لماذا نعيش ؟ أوخدعوا عنها بغايات دنيئة قريبة ... أما هؤلاء الغربيون فحسبوا الغاية من الحياة هى الحياة . جعلوا السبب هو المسبّب ، والوسـيلة هى الغاية ، فعمدوا إلى ترفيه الحياة ، واستخدموا لأجل ذلك ما قدروا عليه ، فصارت حضارتهم آلية جامدة ، وصاروا لطول ما اشتغلوا بالحديد والنحاس يفكرون بعقول من حديد ونحاس ، وانقطعت صلتهم بالروح وانبتّوا مما وراء المادة ... وأما هؤلاء المشرقيون ، من الهنود وأمثالهم ، فساروا على الضد ، وأهملوا الجسم وعاشوا للروح ، فظنوا بأن غاية الحياة الفناء فى المطمح الروحى ، فقتلوا أجسامهم ، وأعرضوا عن دنياهم ، وأغرقوا أعمارهم فى تأمل لا أوّل له ولا آخر ، ولا جدا منه ولا منفعة .. أما الفلاسفة فكان منهم المـاديون الذين بلغ من رقاعتهم أن أنكروا الروح إنكاراً وجحدوا الله ، وقال متكلمهم : (إن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ...) فجعل الفكر مادة سائلة ... ومنهم الروحيون الذين كانوا أصحّ نظراً ، وأدنى إلى الحق ، ولكنهم لم يصلوا إليه ... تساءلوا منذ بدؤوا يفكرون : لماذا نعيش ؟ ولا يزالون مختلفين يتساءلون هذا السؤال الذى عرف المسلمون وحدهم جوابه ، حين قرأوا قول الله الذى أنزله على عبده ورسوله : « وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدون »

استدلّ المسلمون بالمخلوق على الخالق ، وأرشدهم الله إلى عظمة هذا الكون (المكوَّن) فعرفوا منها مالم يعرفه أصحاب الفلك من العلماء الماديين ، غاية ما يعرف هؤلاء أن بيننا وبين الشمس كذا ، وأنها أكبر من أرضنا هذه بكذا ، ثم إن من هذه الكواكب كواكب لو ألقيت الشمس فيها لكانت رملة فى صحرائها ، أو نقطة من مائها ، وما بين مشرق كوكب منها ومغربه أضعاف أضعاف ما بين الشمس والأرض ، وغاب عنهم ما بعدُ من الكواكب ، ووقفت دون رؤيته نظاراتهم ومكبراتهم ، وعجزت عن الإحاطة به عقولهم وتصوراتهم ، فسموه (فضاء غير متناهٍ) ، كما يظنّ الطفل أن البحر لا ينتهى وليس له آخر ... وهل شىء ليس له آخر ، إلا مَنْ هو الأول والآخر ؟ أما المسلمون فعرفوا أن وراء هذا الفضاء مخلوقاً عظيماً ، يحيط به (كالسقف المرفوع) لا تقاس به هذه الكواكب إلا قياس (المصابيح) إلى السقف ، تهون عنده هذه الكواكب العظيمة وتضؤل ، لأن له من الكبر والجلال ما لا نجد فى لغتنا هـذه التى وضعت لهذه

الأرض الحقيرة كلمة تدل عليه ؛ هـذا المخلوق هو السماء الدنيا ، ومن فوقها ستّ سموات أخرى طباقٌ بعضها فوق بعض ، ومن فوقها أشياء أجلّ وأكبر ، لا تكاد هذه السموات تعدّ إذا قيست بها شيئاً ، هي العرش والكرسي ، وهناك الجنة عرضها السموات كلها والأرض ... هذه هي المخلوقات ، التي كانت بكاف ونون ، فما ظنك بالمكوِّن الباقي ؟ ومن عرف هـذا الجلال للمخلوق ، كيف يكون إجلاله للخالق ؟ وهل يجد لحياته غاية إلا الاتصال به وعبادته ؟ وهل يقف به عقله وهمته في هذه الأرض ؟ ... أي شيء هي الأرض في هذا الكون ؟ ما هي في جنب الله ؟

فهموا عقيدة القضاء والقدر أصحّ فهم وأجوده — وعقيدة القدر محنة العقل البشري ، تزل فيهـا العقول الكبيرة وتضل المدارك العالية — فكان فهمهم إياها أعونَ شيء لهم على ما وفقوا إليه من عمل ، وأمضى سلاح بلغوا به ما بلغوا من ظفر . علموا أن كل شيء بخلق الله وبعلمه ، ولـكن الله لم يضطر أحداً إلى الخير اضطراراً ، ولم يجبره على الشر إجباراً ، وإنما أعطاه العقل المميز ، ودله على الطريقين المختلفين ، وقال له : هذا إلى الجنة والسعادة ، وهذا إلى النار والعذاب ، وتركه وعقله ... وأنه قدّر الأرزاق فلا زيادة ولا نقصان ، وحدّد الآجال فلا تقديم ولا تأخير ، فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك ؛ وإذا جاء أجلك فلا تستأخر لحظة ولا تستقدم . رفعت الأقلام وجفّت الصحف ... فمضوا لا يهابون الموت في سبيل الله ولا يخافونه ، لأنهم آمنوا إيماناً بأن المرء ليس أدنى إلى الموت ، وهو في غمار المعركة الحمراء منه وهو في كسريته بين أهله وولده...

ولـكن المسلمين الأولين لم يلقوا بأيديهم إلى التهلكة اعتماداً على أن الأجل محدود ، ولم يُعرضوا عن سنن الحياة التي لا تجد لها تبديلا ، بل اتبعوا قوانين الوجود ، وساروا على نهج الحق ، وحرصوا على الحياة حين يكون الواجب داعياً إلى الحياة ، ورضوا بالموت حين يدعوهم الواجب إلى الموت ... ولم يعرفوا هذا التوكل السخيف ، فيناموا ويتقاعسوا عن العمل ، لأنهم علموا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ولـكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض. وقرأوا في القرآن قول الله الذي أنزله على عبده ورسوله : « فإذا عزمتَ فتوكل على الله » فعزموا على العمل ، وتوكلوا فلم يتكاسلوا عنه ، ولم يتكالبوا على الدنيا ؛ وجدّوا كل الجـد ، ولـكنهم لم يطلبوا شيئاً إلا من طريقه المشروع ، وعملوا لدنياهم كأنهم يحيون أبداً ، ولـكنهم عملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غدا

عرفوا هذه العقيدة على وجهها ، فكانوا أعزّ الناس على الناس ، ولـكنهم كانوا أذلهم لله وللمؤمنين ؛ وكان منهم أزهد الناس وهو أغناهم ، لأن المال كان في يده لا في قلبه ؛ وكان منهم الملك الزاهد ، والعالم الغني ، والفقير العزيز ... وما شئت من خصلة من خصال الخير إلا وجدتها فيهم

كانوا إذا قرأوا في الصلاة قوله تعالى : « إيّاكَ نَعْبدُ وإيّاكَ نَسْتَعِين » كانوا صادقين ، لا يعبدون إلا الله ، ولا يستعينون إلا به ؛ لا يسألون غير الله مالا يقدر عليه إلا الله ، ولا يستعينون بالأموات الذين عجزوا عن معونة أنفسهم . ولقد قرأت السيرة وتلوت القرآن ، فلم أجد في القرآن إلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر كسائر البشر ، في تركيب جسمه ، وصحته ومرضه وطبيعة فكره ، وخطئه وصوابه ، ولـكن الله اختاره للرسالة الـكبرى ، فعصمه من كل ما يدخل الخطأ على الرسالة ، أو يؤدي إليه ، أو يشين الرسول ، فكان صادقاً مصدقاً ، لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول (إذا بلغ عن ربه) إلا الحق ، ولا يشرع من الدين إلا ما أذن به الله . وكان منزهاً عن الذنوب والمعايب التي لا يليق بصاحب الرسالة أن يتصف بها ، فإذا جاوز الأمر تبليغ الرسالة وما يتصل بالدين إلى أمور الدنيا فهو بشر يخطئ ويصيب ، وإن كان من أكثر الناس صواباً ، وأقلهم غلطاً لأنه كان أكمل الناس عقلاً وأثقبهم بصيرة ؛ وما دام بشراً فإنه يموت إذا جاء أجله . وإنه الآن ميت ليس حياً في قبره كما يظن الجهلة من العوام وأشباه العوام ، ويمنعون الناس أن يقولوا إنه ميت ، وقد قال الله ذلك في كتابه ، وقاله أبو بكر صاحب الرسول وصديقه على منبر الرسول في مسجده ، بحضرة أصحابه وعترته . أما الذي قاله عمر ساعة من نهار فإنما كان مصدره الألم المفاجئ ، والحب الطاغي على الفكر ، فلما سمع من أبي بكر ما سمع ، لم تحمله رجلاه فسقط ... قرأت السيرة من ألفها إلى يائها ، فلم أجد أحداً من المسلمين دعا الرسول أو لجأ إليه إذا حاق به الخطب الذي لا يقدر

البشر على دفعه ، وإنما كانوا يلجؤون إلى الله ويدعونه ، لا يقولون مقالة البوصيري :

يا أكرم الرسل ، مالى من ألوذ به
سواك... عند حلول الحادث العمم !

ولا قول الآخر يخاطب عبد الله ورسوله بهذا الخطاب الذى لا يخاطب به مؤمن إلا الله وحده :

يا أكرم الرسل على ربه .. ...
عجل بإذهاب الذى أشتكى فان تأخرت فمن أسأل ؟

لا يدرى من يسأل إذا تأخر رسول الله بإذهاب الذى يشتكى ؟ وهو يقرأ كل يوم سبعة عشرة مرة (على أقل تقدير) : « إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعين » ؟ ! ولم أجد صحابياً لجأ إلى الرسول بعد موته يستشيره فى أمر ، أو يراه فى منام فيبنى على رؤياه حكما ويأخذ منها علماً . ولقد اختلفوا على الخلافة والنبى صلى الله عليه مسجَّى في بيته لم يدفن ، فما فكروا أن يلجؤوا إليه وأن يستشيروه ، وهل يستشار الميت ؟

صدقوا بإمكان المعجزات والكرامات (وهى ممكنة والإيمان بإمكانها من أصول الدين) ولكنهم لم يكونوا يفهمونها على نحو ما نفهمها اليوم ، ولم أجد للصحابة — وهم أفضل المسلمين — مثل هذه الكرامات التى نقرأ حديثها ونسمعه كل يوم ... ووجدت كتب السيرة كلما تأخر بها الزمن ، زادت فيها أحاديث المعجزات حتى بلغت هذه الموالد العامية (مولد البرزنجى وشبهه) التى جاء فيها ما نصه : « ونطقت بحمله صلى الله عليه وسلم كل دابة لقريش بفصيح الألسن القرشية ! » ... « وتباشرت به وحوش المشارق والمغارب » ... « وحضرت أمه ليلة مولده آسية ومريم فى نسوة من الحظيرة القدسية ... ! »

* * *

وقرأت السيرة كلها ، ودققت فى كل سطر منها فما شممت رائحة اختلاف بين المسلمين ، لا فى العقيدة ولا فى المذهب ولا فى الطريقة ، وإنما المسلمون كلهم إخوة في أسرة واحدة ، عقيدتهم واحدة ، عقيدة بلغت من الوضوح واليسر و (البساطة) إلى حيث لا تدع مجالاً لاختلاف . وهل يختلف فى أن الواحد يساوي الواحد ؟ هذه هي عقيدتنا ... ولكن المتكلمين أدخلوا فيها مسائل ليست من العقيدة فى شىء ، وملؤوا بها كتبهم التى عقدوا فيها هذه العقيدة حين حشوها بحكاية كل مذهب مخالف والرد عليه . وجئنا نحن نزيد البلاء بلاء حين نحفظ الطلاب هذه المذاهب والرد عليها وقد انقرض أصحابها منذ دهور ...

أما هذه (الطرق) فليست فى أصل ولا فرع ، ولا تكاد تمشى مع المأثور من الذكر ، وإن أكثرها مسخرة ولهو ولعب : رقص سموه ذكراً ، وغناء دعوه عبادة ؛ فما أدرى أهم أنبياء بعد محمد ؟ (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ؟ وإلا فما بال هذه الحمحمات وهذه الدمدمات ، وهذه الطامات المخزية التى نشهدها فى تكية الدراويش المولوية وأشباهها من دور أصحاب الطرق أو ... قطاعها !

ولقد قرأت السيرة كلها وأجهدت نفسى لأجد شيئاً من الأشياء ، أو مكاناً من الأمكنة قدسه المسلمون وتبركوا به ، فلم أجد إلا ما كان من تقبيل الحجر الأسود أو استلامه . وقول عمر : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك » ... وتمنيت أن أرى في السيرة ذكر المحمل الذى سار فى مصر من شعائر الحج ، يتبرك عظماء مصر بلمس عنان جله ، ويعرض ذلك في (أفلام السينما) على أنه من أركان الحج . وأجد فى السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان — وهو يعانى آلام مرض الموت — ينهى عن اتخاذ القبور مساجد ، فأعجب من حال المسلمين اليوم إذ لا أرى مسجداً كبيراً إلا بنى على قبر أو كان فيه قبر ...

* * *

هذا قليل من كثير عرضته مثالاً لما فى السيرة من عبرة تنفعنا فى نهضتنا ، ودرس يفيدنا فى حاضرنا . فكرت قبل عرضه وترددت ، ثم آثرت إرضاء الحق ومصلحة الأمة ، ففتحت هذا الباب لندخل إلى هذه السيرة العظيمة فلا نخرج منها إلا بالحياة والعز والمجد ، والمزايا التى تعيد للأمة الإسلامية مكانتها فى الدنيا !

(بيروت) علي الطنطاوي